أول أبريل

للأديب نجيب محفوظ

في منتصف الساعة السابعة صباحاً وصل على أفندى خليفة إلى المدرسة التى هو سكرتيرها ، كعادته منذ خمسة عشر عاماً ، وباشر أعماله بالأسلوب الذى تعوده وألفه فصار قطعة من صميم حياته ، إذ أن كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتبدل ولا تتغير : يدخل إلى « حجرة السكرتارية » فيحيى زملاءه — الكاتب والضابطين — تحية الصباح ، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل بالقهوة والماء المثلج ، فيمضى فى احتسائها وهو يتحدث إلى القاعدين أو يستمع إليهم ، ثم يأخذ فى فتح الدفاتر ويراجع ويكتب . ثم تخلو الحجرة حين يذهب الآخرون إلى فناء المدرسة لمراقبة التلاميذ وتنظيم صفوفهم ؛ ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر لعرض الأوراق واستشارته فى بعض الأمور وتلق الأوامر والارشادات . وإذا جاء اليوم الأول من الشهر ازدحمت حجرته بالمدرسين والموظفين وامتلأت يده بالأوراق المالية ، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى إلا وريقات معدودات يودعها جيبه ساعة ريثما يوزعها بدوره أشتاتا على صاحب البيت والقصاب والبدال

هكذا تدور عجلة حياته فتبدأ من نقطة وتعود إليها ، ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت عن الخط المرسوم مقدار ذرة — كأن يتأخر عم خليل بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس فيبطئ الضابط لحظة فى مغادرة الحجرة — قلق واضطرب واهتز رأسه يمنة ويسرة مثله مثل النائم فى ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور لعلة انتفض مستيقظاً منزعجاً ! إلا أن طارئاً من الحدثان نزل بساحته أخيراً فبدل طمأنينته رعباً وسكينته قلقاً وتفاؤله تشاؤما ، وكان الكاتب يعلم بخبيئته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه وأقربهم مودة إلى قلبه ، فلما رآه فى هذا الصباح دنا منه وفنجان قهوته فى يده وسأله همسا :

— كيف حالك ... ؟ فأجابه بصوت ضعيف تمزقه نبرات اليأس :

— يسير من سيئ إلى أسوأ

— ألا يوجد بصيص أمل ... ؟

— أبداً ... أبداً ... لا بيع ولا شراء ... الحركة راكدة ... والديون متراكمة ... والتجار يطالبون ويلحون ولا يمذرون ، وبات شبح الإفلاس منى قاب قوسين أو أدنى ... فإذا وقع — ولا مرد له — خربت خراباً تاماً ودمرت حياتي وحياة أولادى تدميراً وهويت إلى أعماق السجون

فتنهد على أفندى من قلب مكلوم وقال بصوت خافت :

— لا أمل فى النجاة

فسكت الرجل محزوناً ثم ذكر أمراً فسأله :

— وعمتك ... ؟

— أف ... أف ... لا رحمها الله فى دنيا ولا آخرة ... إنها تود لو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها على بال ... ولقد انقطعت عن زيارتها مضطراً منذ حين لأنها لاترانى حتى تصيح فى وجهى : «ماذا جئت تصنع ؟ ! أنا لم أمت بعد ! » والمرأة تتبرع كل يوم بعثات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حباً فى الخير ولكن كيلا تخلف لى مالاً بعد موتها المتوقع يوما بعد يوم

فهز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— ليتك يا على لم ترم بنفسك فى ميدان التجارة غير المأمون ...

— هذا هو الكلام الذى لا جدوى منه ... ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هى التى يسرت على أمرى ، وجعلت عيشى رغداً ... وأعانتنى على تربية ستة من الأبناء ؟

* * *

قبل ثلاثين عاماً كان على افندى تلميذاً بالمدرسة الابتدائية يجتهد أن يفوز بشهادتها ، وقد جرّب حظه مرّات فى سنين متتابعة ، فخاب مسعاه فيها جميعاً ، حتى نفد صبره وذوى أمله . ورأى أبوه أن يفتح له حانوت عطارة فى الغورية ، لبث فيه عامين يناضل في معترك الحياة ، ولكن لم يكن حظه فى حانوته بأسعد منه فى مدرسته ، فاضطر إلى إغلاق الدكان ورجع خائباً إلى بيت أبيه . وهناك فكر فى أمر مستقبله طويلاً فوجد أن خير طريقة ، أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هى أن يعود إلى نبش كتبه التى نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب حظه مرة أخرى كتلميذ مجتهد وإن تقدّم به العمر ؛ ففعل ونجح ، ووظّف كاتباً فى وزارة المعارف . واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ، وأحس فى أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة الاستقلال . ولما كان عرضة للتنقل إلى أقاصى الوطن آثر — عن حكمة — أن يتزوج . وقد جاب مختلف البلدان فى مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف رجلاً فى ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب فى وظائفها جميعاً حتى رقى إلى وظيفة السكرتير

وكان على خليفة مثالاً للرجل العادى الذى لا يخرج عن المألوف ، وأنموذجاً صادقاً للأخلاق المصطلح عليها والعادات والتقاليد التى يجري بها العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين . وجد كل شىء جاهزاً فهش له وآمن به واتبعه ، معتقداً مع المعتقدين ، مستحسناً مع المستحسنين ، ساخطاً مع الساخطين ؛ فإن عرفت جيله فقد عرفته بغير مخالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلاً أو — وهو الأقرب إلى الحقيقة — خبرت الشطر الجامد من الجيل الذى يفتحه التاريخ إلى ما وراءه من الأحداث التى تخلق التاريخ . ولما تزوج استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ، وتكشفت له حقيقته ، فإذا به « رجل بيت » بكل معانى الكلمة ، فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هوية ولا أى شىء فى الوجود بقادر على أن ينتزعه من أحضان بيته . وحين كان يعيش منفرداً مع زوجه كانت حبيبه وأنيسه وجليسه ، فلما أن انبثت ذريته — بنين وبنات — حاشية ساعية لاعبة مشرقة

على أنحاء البيت ، كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه

وكانت الحياة تسير فى بادىء الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البيضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فرضت عليه ضريبتها التى لا تعفى منها أحداً من بنى الإنسان ، حتى صارت عنواناً عليها ورمزاً لها ، وباتت الشكوى منها إنكاراً للحياة نفسها وجهلاً فاضحاً بأمرها ، شبّ أبوه ونما أطفاله صبياناً وغلماناً وهجروا عشهم سعياً إلى المدارس الأولية فالابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوماً بعد يوم ؛ فانقلب يسر الحياة عسراً ، وراحتها تعباً ، وابتسامتها تجهماً ؛ وانسابت الهموم إلى كل جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شىء يهون إلا أن يشقى أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزة

وتذكر أن له عمّة أرملة غنية تعيش بمفردها فى بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافاها وينفر منها من طول ما بثّ أبوه فى نفسه ، ففكر فى أن يقصد إليها مضطراً

وكانت عمته امرأة فى السبعين ، مات عنها زوجها — قبل اربعين عاماً — وهما فى زهرة العمر وميعة الشباب ، وخلف لها ثروة طائلة وطفلاً وحيداً ، وقد ترك موت الزوج فى نفس المرأة آثاراً عميقة مروعة تغلغلت فى صميم حياتها ، ولم تعف مع كر الأعوام ودوران السنين . وأقبلت على العزاء الوحيد الذى بقى لها فى دنياها تمنحه كل ما فى قلبها الحنون من عطف وحدب وتفان وتضحية ، حتى شب طفلاً جميلاً ، ونما شاباً رقيقاً نحيلاً ؛ وبدأت تفكر فى أمر زواجه ، كى تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته ، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لم يقع لها فى حسبان ، فتردي الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدوراً ميؤوساً منه ، وقضى بين السعال من جانبه والتنهد والبكاء من جانبها

انتهى كل شىء وأقفرت الدنيا من الأمل والعزاء ، وماتت حيّة ودَفنت مع ولدها الحبيب كل ماميزها الله به عن الأحجار الجامدة ، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن ، فهى المرأة العجوز القاسية المجنونة التى تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها ، وتسيء الظن بكل من يتقرب إليها ، وتخال أى زائر طامعاً فى أموالها ، وتقضى حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة فى بيتها المهجور كأنها مومياء فى أحد معابد الكرنك الحزينة

هذه هى عمته التى قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه ، وقد استقبلته استقبالاً بارداً جافاً فلم يأنس فى نفسه الشجاعة أن يفاتحها فيما جاء من أجله ، وبرح بيتها أشد يأساً مما طرقه

وقلّب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومى . ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التى اكتسبها فى أول عهده بالحياة العملية . فاتجر فى المطارة ونجحت تجارته ، وأقبلت عليه الحياة رغدة ، ولكن حال النجاح لم تدم ، فساءت الأمور ، وركدت السوق النافقة ، فجزع واشتد جزعه ، وامتدت يداه فى الدفاتر بغير الحق ، ولم ينفعه تلاعبه شيئاً ، وسارت الأمور من سىء إلى أسوأ ، واضطر

— تحت تأثير الخسران — إلى زيارة عمته مرّات وفاتحها — على رغم تردّده — في طلب المعونة ولكنها كانت أشدّ عليه من حظه ومن الأقدار جميعاً، فرفضت أن تمد له يداً أو أن تعيره أذناً صاغية.

وفي ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الفيضان الذي لا يكون وراءه إلا الانفجار والهلاك، فالعمة في أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض، وعلى أفندي على شفا جرف هار من الخراب والدمار، والتجار متذمرون جزعون، يطالبون ويلحفون ويطبمون على آذانهم فلا يسمعون، وقد عينوا له أول أبريل كآخر منزع في قوس صبرهم، فان لم يسدّد دينه ويسو حالته أشهر إفلاسه، وليكن مايكون بعد ذلك من رفضه من وظيفته أو إيداعه السجن . . .

كل هذا ينتظره في أول أبريل . . ! وما بينه وبين أول أبريل إلا أيام معدودات ! .. وقد نفدت حيلته وسدت في وجهه المنافذ ! . . ثم ماذا يكون من أمر هذه الأسرة التي هي ثمرة حياته ومحيا آماله ؟ ! .

هذه الأسرة التي تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما يهددها من الشقاء والبأساء، اللهم إلا ربتها الصابرة القانتة التي تشارك الزوج أحزانه وتبادله همومه وتكتم في قلبها الكبير ما لو أطلقته لأحرق الدنيا بأسرها من شدة ما به من هول، ولأحرق أول ما يحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يمرحون سادرين كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها من قريب . . . وذكر في شدة حزنه أبناءه فهرعوا إلى مخيلته في صورة تفيض حياة وجمالا . وكان حسين ومحمد في المدرسة الثانوية فتيين ناميين يحملان طلعة والدهما ورقة أمهما، وهمام وحافظ ويسن في المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويعتلى هرجاً ومرجاً ما داموا فيه، ويسكن سكون المقابر إذا غابوا عنه، وزينب أو زوزو في المدرسة الأولية هوية الأسرة ولعبتها، صبوحة الوجه، سوداء العينين، مرسلة الشعر، كانت بنتاً بين ستة ذكور كالياسمينة وسط باقة من الورد الندىّ، حبيبة إلى كل قلب، عزيزة على كل نفس، حتى لكأن هذه الأسرة لم يتزاوج فيها الوالدان ويولد الأبناء إلا ليهيئوا المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام

فماذا يكون من أمر هذه الأسرة من بعده ..؟ بعد أن يرفض من وظيفته ويزج به في السجن ..؟ أواه ! دون ذلك ويمكن المستحيل وتقع المعجزات والخوارق . . ! !

ولم يجد مناصاً من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته علّها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة، فسار في طريقه إليها — وكانت تقيم على مدى منه قريب في شارع محمد علي — مهموماً متضايقاً يعمل ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة . يا لله من هذه المرأة . . ! ما لها لا تموت . . ؟ إن حياتها فرض ثقيل عليها وعليه، وإنها كالبنيان المتهدم ينعق فيه ناعق الخراب والمرض . ورغم هذا فذبول الحياة ما تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن بموتها فلم يبق الله عليها ؟ والمضحك المؤلم أنها قد تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من ابريل بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تحتار في تعليله العقول، وقديماً وقف موسى الكليم حياله جزعاً لا يستطيع معه صبراً ! وطرق الباب ودخل حيث قابلته المريضة بابتسامة صفراء ذات معنى، فسألها :

— كيف حالها ؟

فأجابته ببرود : بخير

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبحوح دلت بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

— من الذى تكلمين يا عائشة ؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس الكهرباء ، وتردد ، وجمد ، ثم كز على أسنانه ودخل إلى الحجرة وهو يقول :

— أنا على ... كيف حالك يا عمتى ؟

فدمدمت وقالت بتأفف وتبرم : على !

فأحنى رأسه ووقف صامتاً وعادت هى إلى سؤاله قائلة :

— هل جئت حقاً لتطمئن على صحتى ؟

— نعم

— وهل يهمك أمر صحتي ؟

— طبعاً

— إذا لم تخلط السؤال عنها بسؤال شيء آخر ؟

فضرب كفاً بكف وقال بصوت حزين :

— لا تظنى بى الظنون ... فقد عشت دهراً لا أسألك شيئاً ثم ...

— ولم تكن تربى وجهك بتاتاً ... ولم تكن صحتى أمراً يهمك السؤال عنه ...

— بالله أعيرينى أذناً صاغية ... لقد شرحت لك أحوالى ... أنا مهدد بالخراب بين لحظة وأخرى . اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنائى البؤساء وما ينتظرهم من شقاء ...

— لم أر أبناءك طول حياتى ...

فآلمته لهجتها التهكمية وحمى رأسه بنار الغضب ولكنه لم يكن في حال يأذن له باعلان مايبطن ، فنظر إليها نظرة النمر الواقع فى الشرك وقال وهو يجهد أن يجعل صوته هادئاً :

— إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة ...

وهنا هبت قاعدة فى فراشها وصاحت فى وجهه

— فى داهية !

— عمتى ...

— لست عمة لأحد

— لا تكونى هكذا

— هكذا أنا ... أعزب عنى ولا ترنى وجهك مرة أخرى

وحاول أن يقول شيئاً ولكن لم يسعه الكلام ، فجمد لحظة حيث هو ملتهب العينين ، محمى الرأس ، مرتعش الأطراف ، ثم غاب عن ناظريها . ولاقى فى الخارج الممرضة واقفة تنصت ، فقابلته بنفس الابتسامة وقالت :

— كالعادة مرة !؟

فهز رأسه غاضباً وقال :

— إنها شر ما فى الوجود ... إننى أعجب كيف يؤاتيك الصبر على معاشرتها ؟

— إنى أقوم بواجبي ... وهى على كل حال لا تعاملنى نفس المعاملة ...

وتوقف لحظة لايدرى ماينبغى أن يفعل ، فلاحت منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصت عليها زجاجات الدواء فتنهد وقال بغير وعى :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة !

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها الممرضة يقول هذا القول فارتاعت لتكراره ورددت قوله مرتعبة :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة ! !

فنظر إليها بسرعة مرتجفاً والتقت عيناها لحظة فلمع بينهما ما يشبه البرق ، ثم خرج مهرولاً وهو ينتفض من هول ما خطر على باله ، وهبط السلم مسرعاً كأنما يفر فراراً ...

* * *

وجاء اليوم الأول من ابريل ، والأيام تسير فى دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات وأهوال لا اختلاف فى هـذا بين يوم التطير أو يوم التفاؤل ، ولم يكن هـذا اليوم جديداً فى العام ولا جديداً فى حياة على افندى ، ولـكن خيّل إليه هذا الصباح أنه يستقبله لأول مرة في حياته بل عجب كيف أمكن أن يوجد كبقية الأيام وكيف أمكن أن يأخذ مكانه الطبيعى بين أيام السنة وهو يحمل له نذير الخراب ولأسرته الشقاء والفناء ! ...

أواه ! إن موعده مع التجار أصيل هذا اليوم ، ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره . وانه ليعلم علم اليقين أى طريق هو موليها بعد حين قليل ... بعد ساعات سريعة الجريان ...

ومع هذا فها هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف القهوة ويقلب الأوراق ويشترك فى الحديث مع هذا وذاك ، وكل من حوله منصرف إلى عمله ، والتلاميذ فى الفناء يضحجون ويلعبون ، والحجرة هى هى ، والمدرسة هى هى ، والدنيا كلها هى هى ، كأن شيئاً لن يحدث ، وكأن دماراً مروعاً لا يوشك أن ينزل بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح ! !

والمضحك بعد هـذا أن يقال إن الإنسان حيوان عاقل ، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور عقله قضاء يعجز الحيوان عن رده لانعدام عقله ؟ ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه دماراً يعلم به قبل وقوعه ، وكم غير هذا الدمار — مما يجهل — قريب لا يستطيع حياله تصريفاً . حقاً إن الحياة مأساة مؤلمة مضحكة ، ما الذى ينبغى أن يفعل ؟ ... إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف ولا يملك إلا تكراره وترديده كالمخبول ... وقد سمع فجأة صوتاً يقول :

حان الميعاد ...

فارتجف جسمه وانخلع قلبـه فى صدره ... الميعاد ... إنه لا يفكر إلا فى ميعاد واحد ولـكن الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكا :

الساعة تدور فى الحادية عشرة فهيا إلى الوزارة لاحضار المرتبات ...

حقاً إن اليوم يوم المرتبات ، ينتظره آلاف غيره بفارغ الصبر فكيف نسى هـذا ؟ وخرج متثاقلا مهموماً يولى وجهه شطر الوزارة ؛ وعلى حين فجأة وبغير تمهيد واع اصطدم فكره الشارد المتوزع فى محيط الشقاء بفكرة وامضة ، فتنبهت حواسه ، وشع من عينيه بريق خاطف ، وأحاط به الرعب الذى مسه حين التقت عيناه بعينى المرضة فى بيت عمته بالأمس القريب . لاحت له هذه الفـكرة فى لحظة سريعة جنونية ، رآها كمن يفتح عينين ناعستين فى الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى ، يهدد ثانية ثم يختفى تاركا خلفه الصرع والجنون . وقد جن بغير شك ، واستولت عليه الفكرة بقوة مارد مستبد . أى رعب ، أى شر ، أى مصيبة ، أى نجاة ، أى فكرة نيرة ، أى خلاص ، أى دمار ، أى هول ، انهـا تحمل جميع هذه المتناقضات إلى نفسه المضطربة المريضة ، وإن من اليأس ما يعجز عن قلقلة ذرة من الرمال ومنه ما يزحزح الجبال ،

وقد جرى منطقه المحموم فى طريق ذى عوج : إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفض والسجن ، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفض ولا من السجن ... إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف ، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينقذ تجارته فيضمن لأسرته — وأسرته هى قطب تفكيره — حياة رغدة سعيدة ، بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم رعباً ، إنه ينوى أن يراود المرضة — بسلطان المال — على ... ! ! حقاً إن هذا فظيع مخيف ... ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة ، التى تقع من حياته موقع الزائدة الدودية الملتهبة ... حقاً إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الانسانية ... ونفاذها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه . وهب أن المرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضيره إباؤها شيئاً ، وتدق بعد هذا تجارته ، وهذا شىء مؤكد . نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات قلائل يقضيها — مع الاطمئنان على أسرته — صابراً ويخرج بعدها كي يتمتع بعيشة هانئة ثرية فى مكان سحيق ... كل هذا واضح بيّن ولا بد من تنفيذه بدقائقه ، وليكن بعده ما يكون ...

واستلم المال واستقل « تاكسى » وقال للسائق بصوت حاول ما استطاع أن يجعله هادئاً : إلى شارع محمد على . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد متسعاً للتفكير والتدبير ، كم هو مرتعب خائف ، إن أسنانه تصطك ، وأطرافه تنتفض ، وأجفان عينيه تتصلب ، وريقه يجف ، وأنفاسه تبطىء وتثقل كأن يداً جبارة تخنقه

ووصلت السيارة إلى شارع محمد على ، ودلو لم تصل إليه أبداً . وكان قد دبر الأمر كله فى عقله ولكنه شعر فى تلك اللحظة بأنه فى حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه كأنه لم يطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة ، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها ، رباه ! لقد أرعبه مشهد الشرطى وأثلج دمه فى عروقه ، وهم أن يأمر السائق بالرجوع ... وعلى حين فجأة سمع صوتاً يناديه قائلاً :

— بابا ...

فالتفت مذعوراً فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة ، ووجهها الجميل قريب منه ، وكانت تمسك بحقيبتها فى يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أبيها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة ، فنهها بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :

— لم أنت هنا ؟

— أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائى وذاهبة إلى المدرسة

— حسن ... حسن ... هيا إلى المدرسة بسرعة لئلا تتأخرى

— انتظر ، عندي لك خبر سار ... هل تشتري لى شيكولاته نسله إذا قلته لك ؟

— ليس الآن ... هيا ... هيا ...

— عمتى ...

— فجمد لسانه فى فمه ونظر إليها نظرة غريبة ففرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :

— ماتت

— ماتت عمتك ! !

فرت هذه العبارة من فه فى صراخ مدوٍّ ... فازداد فرح الفتاة وقالت :

نعم ... هذا ماقالته لى حميدة « الخادمة » لما سألتها عن تغيب ماما على غير عادتها

وصرف زوزو بعد أن وعدها خيراً وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة ، ثم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقيها . لقد أتاه الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه فى الهاوية ، أنقذ من الافلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . رباه ! انه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبداً وما كان فى مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدّر هذه النهاية أو يحلم بها ... فالحمد لله ... الحمد لله ...

وانصرف من المدرسة سريعاً قاصداً بيت «المرحومة» ووجده كما تعود أن يراه هادئاً ساكناً لاصوت ولا مجيب . فطرق الباب ثم دخل ، وقابلته المرضة وكانت محافظة — رغم كل شيء — على هدوئها ، وقد سألته منكرة :

— أجئت مرة أخرى ؟

فنظر إليها دهشاً وقال :

— ما أغرب سؤالك ... ألست على كل حال ابن أخيها !

واجتاز بها مسرعاً إلى حجرة المتوفاة ... فرآها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين ، بل رآها — وهو الأدهي — تنتصب قاعدة وتشير إليه بيدها الضعيفة مهددة وتصيح فى وجهه :

— كيف تجرؤ ؟ كيف تتجاسر ؟ ألم أطردك طردا ؟ أخرج ... أعزب عن وجهي ...

والظاهر أن المرأة تأثرت من الغضب الذى تملكها فجأة فسقطت على المخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوتاً جامداً كالتمثال ، ذاهلاً لا يستطيع كلاماً ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد المرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائعاً وغادر البيت دون أن ينبس ببنت شفة

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مسدول عليه ، وكان البيت يخيم عليه السكون ـ كعادته ـ إذ الأولاد فى المدرسة ، فظنت زوجه لأول وهلة أنه آيب من مكان عمله كعادته اليومية ، ولكنها مالبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتملكها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله أناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ؟ وفزعت إلى سؤاله وهى أكره ما تكون للسؤال :

— ما بالك ؟

فسألها بدوره بامتعاض :

— أين زوزو ؟

— لعلها فى الطريق إلى البيت ...

فصاح بغضب :

— هذه الطفلة الشريرة !

— زوزو شريرة ؟

— قابلتنى فى الطريق منذ ساعتين وكذبت علىّ الشيطانة قائلة إن عمتى ماتت

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة :

— كيف تجرؤ ؟ من أين لها هذا الكذب ؟ هذا أمر عجيب .. بل إنه أعجب شيء أسمعه فى حياتى..

لعل البنت وهى تسمعنا دائماً نتمنى على الله موت عمتك — أرادت ... »

ولم تتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو . وما إن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه ثم قالت وهى لا تسكت عن الضحك :

— هل اشتريت لى الشيكولاته كما وعدت ؟

فنزع يدها الصغيرة عن رقبته بشىء من العنف ، وحدجها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره :

— كيف تكذبين علىّ ؟

فقالت وهي لا تكف عن الضحك وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاته :

— فى أى يوم نحن ؟

— إنى أسألك كيف تكذبين علىّ ؟

— اليوم أول أبريل . . . وقد علمت أنه يجب على الناس أن يكذبوا فيه .. وهكذا قالت لي بثينة ، وقد سألت (أبله) فأمنت على ماقالت بثينة ، ولكنها نبهت علىّ أن أختار كذبة سارة كى لا أوذى أحداً ... وقد اخترت لك أحسن كذبة ! »

فقطب وجهه وقال لها بشدة :

— لعنة الله عليك وعلى أول أبريل ... هل يصدق الناس طول العام كى يلهوا بالكذب فى أول أبريل ! ... »

وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقاً ، وأنها فقدت كل الأمل فى الشيكولاته ، فكفت عن الضحك وعلا محياها الارتباك ، واحمرت وجنتاها من الخجل ، ونظرت إلى أمها تستغيث بها . أما أبوها فقد قام متثاقلاً ودلف إلى حجرته حزيناً كئيباً ينوء بالهم والفكر ، ولحقت به زوجه وانتبذت ركناً من الحجرة فى صمت ووجوم ووقفت ترمقه بعينين كئيبتين وقلبها يحدثها بدنو شر مستطير ، ولكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الغليظ . انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وآذن الخراب بالوقوع

هل ينتحر ويضع حداً لهذه الحياة القلقة المنغصة ؟ لقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة ، ولكنه تغلب عليها وفندها قائلاً لنفسه : « إذا انتحرت فمن للأولاد ؟ ... » ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم القادر

وظل الصمت مخيماً يزهق النفوس ، والمرأة واقفة حيث هى ، وهو قاعد على الكنبة مسنداً رأسه إلى كفيه ، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عيناها تدوران بين والديها ، ثم ارتدت مسرعة ، فارة مضطربة

ولبثا على حالهما لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد ، وهم يدخلون واحداً واحداً يتقدمهم ضجيجهم وجلبتهم ، وقد دبت الحياة فى البيت وتحول فى ثانية إلى سوق ، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك ، وسمعت أصوات تنادى ، وأخرى تسب وتلعن ، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية ، ورابعة تسأل عن ماما وبابا . ثم طرق الباب مرة أخرى بعنف ، ودخل شخص ما ، وساد صمت عجيب . ترى من القادم ؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل فى جلسته ، وعيناه تتساءلان ، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط صاعقة ... ورأى حسيناً يدخل مسرعاً وسمعه يقول باضطراب :

بابا ... يقولون إن عمتي توفيت ...

فقام الرجل كالمجنون وحدج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن :

حضرت المرضة الآن حاملة هـذا الخبر ... وها هي ذي واقفة تسأل عنك ... تفضلي إلى هنا ياسيدتي ...

***

في ساعة متأخرة من ليل ذلك اليوم — يوم أول أبريل — جلس علي افندي إلى جانب زوجه وكانت ما تزال في ثوب الحداد وقد أوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت . كانت المرأة صامتة ولكن كان وجهها راضياً مطمئناً وبالها مستريحاً وقد ولي عنها الذعر الذي لازمها أياماً خالتها دهراً طويلا

وكان علي افندي يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعي ، وإذا به يرى صاعقة تنقض على المكان الذي كان يشغل ... قد كان السجن والرفض والدمار منه قاب قوسين أو أدنى ؛ وهاهو ذا يطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمناً بمنجاة من كل دمار ، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة ، فكم بالحياة من معجزات!

وعلى رغم كل هذا لم يكن سعيداً تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر في تأملات عميقة . لقـد عاش طول عمره حياة راكدة راتبة ؛ أما الساعات القلائل — القلائل !! — الأخيرة فقد ابتلى فيها بما لم يبتل به في عمره الطويل المديد إذ أثارت نفسه عقله وجعلت من بحيرة نفسه الآسـنة محيطاً مضطرباً عاصفاً

لقد خلصه الله من العذاب ، ولكن هل يستحق الخلاص وهو الآثم الشرير الذي هم أن يقارف السرقة والقتل ؟ ثم عمته المرحومة ؟ إنه يدرك حالتها الآن بغير العقل الذي كان يصورها له ويعطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سيين ، فقد عاشت بائسة حزينة تجتر الهموم والآلام ، وكانت حياتهـا فرضاً ثقيلاً عليها وعلى الآخرين . نعم كانت قاسية شديدة ، فوق كل احتمال ، ومع هـذا فـكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت ؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة ؟ أليس هو في أعماقه قاتلا سارقاً مدانساً ؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتتعدد فتكون عالم الناس ... ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هـذا الشر غالباً ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس ، كما انكشف شذوذ عمته عن ترمل وثكل ، وكما ينكشف تخبطه وسوء نواياه عن محبة فائقة لأبنائه الأبرياء ، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته ، والرحمة أسمى حلم في الوجود ، ولـكنه لا يستطيع أن ينسى أيضاً أنها سبقت هنا بكذبة ابنته وموت عمته ، فكيف يكون الموت والـكذب من ممهدات الرحمة ؟

حقاً إنه مهما ادعى التأمل فسيبقى أمامه ما يعجز عقله ويربكه . وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذي تبعثه مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين ، ولقد ضاق صدره وأرقه السهاد فهتف من أعماقه :

— من لي بزوزو الآن ؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرتها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عني أفكار هذا الليل وتسكب في قلبي الطمأنينة والسلام ...

نجيب محفوظ